

ودماراً ، وشقوة وبوراً .

هما موقفان من مواقف الأمة العربية وقادتها ، كان أولهما في مطالع العصر المملوكي ، وكان ثانيهما في أخرياته . يتمثل في الأول عزايا الإقدام والشجاعة ، وعواقب الحزم والمزم ، وفوائد الوحدة والتعاون ، بما يحق الحق ويعصون الكرامة ، ويوقى العزة ويؤثل الجسد ، ويضفي المهابة . ويتمثل في الثاني مثالب الخور والجهن ، وعواقب التردد والضعف ، وغرم الفترق والخلف . بما يهدر الحق ويشيع النبل ويمكن للفساد ، ويصوح به نيت الحياة .

أقبل عام ٦٥٦ هـ يحمل في جمابه الأمم الإسلامية مهاماً صريشة ، وعلى مناكبه رماحاً مشرعة ، تنذر بالويل والثبور ، والحلاك والدور . فها هم أولاء التتار قد تسلوا من أواسط آسيا بعد أن خربوا الديار وأباحوا الدمار ، بقلوب فاجرة ، وأقواء فائرة وحب السفك تفل به دماؤهم ، واضطرب أعضاؤهم ، وقد هينوا المدية ، وجموا السكيد ، فتجههم بهم وجه الأفق ، وارتدت بهم صفحة السماء ، واكفهر جو القدر وأرجف المسلمون في كل مصر أن حدثاً جلاباً سيقع . فتدافعت سيول التتار إلى بغداد والعراق ، بعد أن خلفوا وراءهم أمماً باكياً وشموهاً ممزقة وعروشاً مشلولة فأنتموا ببغداد فصول روايتهم ، وأزالوا من سماها شمس الخلافة العباسية ، وأثنخنوا في أهلها ما شاء لهم العرام والشراسة وحب السفك والفتك .

تسامم الماس بأخبارهم في ديار حلب والشام ومصر ، وأخذت الفرائص ترند هلاماً وفزعاً تترقب هبوط هذا الوياء القترى آوثة وأخرى . وكانت ديار حلب والشام مقسمة دولاً صغيرة متنازعة متعادبة متوالية يحكمها بقايا من أختراء بني أيوب . بينما كانت مصر قد نائل فيها المماليك دولة عتيدة وسلطنة مجيدة جهسد مؤسسها عز الدين أيبك في توطيد دعائمها وتثبيت أركانها منذ عام ٦٤٨ هـ . ثم خلفه ابنه المنصور ، وكان حدثاً صغيراً ، فأقيم الأمير « قطز » المزي مملوك أبيه نائباً لسلطنته وفرضت أمور الدولة إليه . وكان على دمشق أمير من الأيوبيين اسمه الناصر ، ترددت الأطلح في نفسه أن يدم مصر ويستأثر بملكها . فلذلك كان بينه وبين سلطان مصر دخل وجفاء . وبينما كان الناصر بين الخوف والطمع إذ وافته رسل « هولاكور » القترى تطالعه برسائله التي يهدهه فيها وبتوهمه ، ويدعو إلى الدخول في طاعته . وبين سطورها

طرائف من العصر المملوكي :

عبرتان من عبر التاريخ

للاستاذ محمود رزق سليم

—>>><<<—

هاتان عبرتان من عبر التاريخ — وكم فيه من عبر — فسورةها إلى زعماء العرب وشعوبها ، في هذه الأزمة الخائفة والآونة الحاسمة التي يمررون بها أو تمر بهم . واملل فيهما منطقاً ومعتبراً

في كل عبرة منهما نزل خطاب ، وألت شدة ، وحزبت ضائقة ووقف عدو لدود بالمرصاد .

أما في الأولى فقد التامت الصفوف وتنادت الأصوات وتصافت النفوس ولت الأيدي واجتمع الهوى ، حتى أصبح المسلمون — أو بعضهم — جبهة واحدة ، فردوا المدوان ودفخوا الطفيان وكانت عاقبتهم نصراً مؤزرأً وغلباً مظفراً .

أما في الثانية فقد تغيرت القلوب وانتثر الشمل وتفرقت الأيدي ، وأضمحل القدر ، وحيكت الخيانة ، فكانت العاقبة خساراً

ولا تجمل الشورى عليك غمضاً فإب الخواقي قوة للقوادم ومنهم من لم ير فيه جمالاً ، كعبد الملك بن صالح حين قال : « ما استشرت أحداً إلا انكبر علي ، وتصاغت له ، ودخلته العزة ، ودخلتني الذلة ، فمليك بالاستبداد ؛ فإن صاحبه جليل في الميون ، مهيب في الصدور ، وإذا افتقرت إلى المقول حقرتك الميون ، فتضع شأنك ، ورجفت بك أركانك ، واستحقرك الصنير ، واستخف بك الكبير ، وما عز سلطان لم يقنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصائحه » . وكلا القطمتين من الأدب .

أما التعبير الإياحي فليس من الأدب ، ولا الفن الجليل ، لأننا نسمي بالإثارة ، تلك الإثارة الوجدانية الروحية الخالصة ، أما إثارة الغريزة الجنسية فليس من عمل الأدب ، ومثل هذا اللون من القول مثل الصور الخلية الماجنة لا يمدان من الفنون الرفيعة .

أحمد أحمد بروي

الدرس بكتابة دار العلوم — بجاسة نؤاد الأول

يخاطبه ويقول . « إذا وقتت على كتابي هذا ، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين ، تأمن شره وتدل خيريه . كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ولا تموق رسلنا عندك كما عوقت من قبل فإمسك بمهروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحرعهم إلى « كروان سراى » ، فإن كانوا في الجبال نسفناها ، وإن كانوا في الأرض خسفناها .

أين النجاة ولا مناص لجارب ولى البسيطان الثرى والماء ذلك لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبعتى الأمراء والوزراء فقُزعت أحشاء الناصر ، وصكت ركبته ، وسقط في يده ولم يدر ما يصنع . فأرسل إلى « قطز » يستجديه معونة مصر ، بعد أن كان طامعاً في ملكها وكان « قطز » قد شمر بالخطر القريب ، وفتن إلى الشر المرتقب فأخذ يعد للأمر عدته ، ويتخذ له أهبة . وتحميل حتى خلع سلطانه « المنصور » وقفز بنفسه إلى سرير الملك ، ليكون طاق اليد حر الإرادة في تدبير الأمور ، في هذا الوقت الحرج والموقف الشائك . غير أن وثوبه إلى العرش قد أحقد بعض الأمراء عليه وأحنقهم ، فتجههوا له ، وهو ما به فأخذ يترفق بالتأثرين حتى هدا من نورتهم ، ويتلطف بالخاصين الحاقدين حتى قال من حنقهم وثبط من حقدهم ، واعتذر إليهم بأنه لا مآرب له في ملك أو سلطان ، ولا مقلع في عرش أو تاج وإنما هم الأول أن يكونوا بدأ على من سواهم ، وأن يدموا عن أنفسهم وديارهم خطر التتار ، الذين ما دخلوا قرية إلا أقعدوها ، ولا مصرأ إلا جعلوا أعزة أهله أذلة ، ولا بلداً إلا عبثوا بترانه ، أولئك التتار الذين ضجت لهم الأرض ومائتوا فجأها بالدماء ، وعرفوا بأنهم القوة التي تغلب ، والوباء الذي لا يستطاع كفاحه .

ويذكر بعض المؤرخين أن هذا السلطان « قطز » هو محمود ابن محمود ، وأنه ابن أخت جلال الدين شاه خوارزم الذي أباد التتار ملسكه وعفوا أثره . وقع محمود هذا في الإسار ، وتنقل به ذله من دار إلى دار ، حتى دفع به المقدر إلى مصر ، فابتاعه سلطانها « المنز أيبك » فاستأجر برقه . وكان حبيباً إلى قلبه قريباً

إلى مجاسه ، أنبرأ عند تدبيره . فملا نجمة ، وزكت فيه مخايل الإمارة ، وررى في أحماقه صوت النار وصلصل جرس الانتقام فما هو إلا أن ملك الناصية وأخذ بالزام ، حتى قاد أسراؤه وجنوده بعتاد الحزم وذكركم بواجبهم المقدس حيال الاسلام ، وإنهم إن أحجموا باد . وإن أقدموا سياد . وهام أولاء يرون دوله تسقط فتبيد واحدة إثر أخرى . فراءهم بهذا الخطاب ، وملكهم بمنطقه الخلاب ، فألقوا إليه السلم ، وتوافدوا إلى حظيرته زمرأاً زمرأاً ، بعد أن بت فيهم عزماً من عزمه ، وحاسماً بما يتقد في جسمه .

تطارت الأخبار منذ أوائل عام ٦٥٨ هـ إلى مصر ثوب التتار على حلب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين ، وما اجترحه أولئك الطغاة فيها من قتل وسبي ، وسلب ونهب ، وتخريب وتدمير وتشريد ، وظلم وجور ، وبغيت التخوم والمسالك بالفارين واللاجئين من وجه البنى والمدوان .

وجاء النذير إلى مصر ، ووفدت إليها رسل هولاء كو — بعد أن أمر الناصر وخرّب دياره — ومعهم رسالة إلى سلطانها يقول فيها : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المهالك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بساطانه بمد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلفنا من سخطه ، وساطنا على من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فانهظوا بغيركم ، وأسلوا إلينا أمركم ، قيل : أن ينكشف الغطاء ، فتندموا وبمود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكوا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد . فإليكم بالهرب وعلينا بالطلب . فأى أرض ياربكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فالسك من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فغيرلنا سوابق ، ومهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال » ... الخ .

حزم « قطز » رأيه وشاور أسراؤه ، فأيقنوا جميعاً بالخطر

« قطز » وموقفه الرائع ، أكثر من قرنين ونصف .
 أما في الموقف الثاني فقد كان في عام ٩٢٢ هـ على عهد سلطان
 مصر قانصوه الغوري ، الذي اتتيد إلى المرش بين بكائه ونحيبه
 رهبة وإشفاقاً من المسير . فقد كانت البلاد مزقتها الفتن الداخلية
 والحروب الأهلية ، ولج بين بينها الخلف ، وصنع بهم ما يصنع
 السيف . وخوت خزائنها على عروشها . ولم تعد لها إلا حثالات
 وشراذم من أمراء وجنود ، تملأ كل شرفة المعبوية لنفسها ،
 وحب الجهاد لمنقمتها ، غير آبهة لسواها إلا مزاحمة ومجادلة ، ولم
 يمد يديهم من شؤون البلاد شيء إلا استغلالها . بينما كانت دولة
 الممانيين في آسيا الصغرى تسيطر سلطانها وتنفذ طغيانها .
 وما وافق عام ٩٢٢ هـ حتى أخذت تمهد لغزو الشام ومصر .
 ووطئت أنباء استمدادها آذان البلاد . فاضطر الغوري إلى الخروج
 عن البلهنية والطمأنينة ، إلى العمل على اللقاء . وشرع يجمع القادة
 والجنود ويحثهم على النهي للخروج إلى الجهاد ، فكان كأنه
 يستجد بهم شيئاً لنفسه ، لا أنه يتقاضاهم القيام بواجبهم . لذلك
 اتفألوا عنه ولم يحقوا إليه . وكان كل ما حوله ينجذ عن القتال
 وينبسط عن النفور إليه إلا بقية ممن لا تزال بهم بقية من ضمير ،
 وقبس من إخلاص ، وإثارة من كرامة .
 وكانت بالسلطان غفلة لا تنبئ لئله في وقت شدة وضيق ،
 وكما وردت أخبار توى إلى الصلح والتراضى بينه وبين الممانيين
 هنس وبش ، وهلل وكبر ، وفرح واستبشر . ولعله كان يرى
 من وراء ذلك إلى حمم العداء وحقق الدماء ، ولا سيما أن الممانيين
 إخوان في الدين . ولكن اللهج بالصلح ضعف ، واشتبهاء المواقعة
 خور ، والاستسلام للمافية جبن .
 وكانت تبيته رسل السلطان سليم فيهبرونه باللسان الممول ،
 والهدية النفيسة ، فيلقاهم لقاء الخافل ، ويمانهم عتاب الخليل ،
 وما كانوا إلا ليهودوا للظفر بالناقلين . وبث الممانيون الميون
 لينقلوا إليهم أخبار مصر وجيشها الباسل وسلطانها المنوار ، فلم
 يعمل أحد على قطع دابرهم والقضاء عليهم ، وبث نائب السلطان
 بالشام إليه يجار بالشكوى مما بالشام من غلاء فاحش وجذب
 ضارب ، وينكر أن للممانيين رغبة في القتال ، ويدعو السلطان
 إلى القبول والقعود .
 ومهما يكن من شيء فقد أنصف السلطان نفسه ، وأعد المدة

الدهام والشر المستطير . وأنهم إن لم يأخذوا الطريق على عدوم
 بقلب شجاع ونفس مغامرة وروح قادية ، وهمهم في عقر دارهم ،
 وأزال ملكهم ، وخرب ديارهم ، وهم البقية القوية من جند
 الإسلام . ولهم عبرة بما اجترح التتار في الشام والمراق والجزيرة
 وأواسط آسيا . فقرر رأيهم على قتل رسل « هولاكو » وعاقروا
 رهوسهم على باب زويلة ، وأعلنوا في الناس بالجهاد ، والخروج في
 سبيل الله ، دفاعاً عن النفس والمرض والدين . وأعجل الجنود عن
 شئونهم ، ودبر المال ؛ ورأى السلطان تواكل بعض الأمراء ،
 فقررهم تقريباً شديداً ، وقال لهم . « يا أمراء المسلمين الحكم زمان
 نأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للترزة كارهون . وأنا متوجه ،
 فمن اختار الجهاد بصحبي ، ومن لم يحتر ذلك يرجع إلى بيته .
 فإن الله مطلع عليه . وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين »
 فأقبل الأمراء عليه بقسمون له يمين الطاعة والولاء .

نفر جيش مصر بمدده وعدده ، يتقد حماسه ويفيض رغبة في
 القتال وعلى رأسه سلطانه « قطز » الشجاع الباسل الصنديد .
 يحث به أمراء باعوا نفوسهم لله ، يحدوم الولوع إلى لقاء التتار ،
 فأما حياة كريمة ونصر مؤرز ، وإما موت لا يقاس به موت .
 وهناك في عين « جالوت » بفلسطين ، التقى الجمعان في معركة
 حامية سالت فيها أنهار الدماء ، وتجمعت أكاداس الأشلاء . ولما
 اشتد وطيسها على المسلمين صرخ « قطز » من الأعماق قائلاً :
 « وإسلاماء » فدوى صوته في آذان جنوده . وكأنها كانت
 صرخته إشارة بالكر ، أقدموا لا هيبة ولا وجل ، وأخذوا التتار
 من كل جانب حتى قتل قائدهم « كتيبا » وولت فلولهم لا تلوى
 على شيء . فنبههم السلون إلى « بيسان » فدارت بها رحى
 معركة جديدة ، دحر فيها التتار وأسلموا للقرار ، تاركين من
 ورأهم قتلى قد ضاق بها الفضاء .

استطاع جيش مصر وجده بهاتين المواقعتين أن يحمي بلاد
 الشام من شر التتار ، وأن يقذف بهم إلى غير رجعة بعيداً عن
 أرض مصر ، فلم تطأها لهم قدم . وتمتبران نقطتي تحول حاسم في
 تاريخ مصر لا تقلان في أهميتهما من موقعة « الملبين » في الحرب
 الأخيرة . وبدت بهما قوة التتار خرافة لا سند لها ، وأن التغلب
 عليها مستطاع ، متى صدق الإيمان ، واجتمع الصبر والتعاون ،
 وأحدث القلوب . وقد طاشت سلطنة المايك بمدما بفضل شجاعة

طرائق قديماً ، وذلك في موقعة « مرج دابق » لولا أن أطلقت
الحياة بقرونها ، وطلع القدر عليه مطلع الشيطان . فأحماز بعض
القادة عن سلطانهم بلا سبب ، ودبت الوقيعة بين القراصنة
والجلبان فشققتهم أنفسهم عن واجبهم ، ففكر المماليك عليهم
وطمنوا القلب ، وفيه السلطان يدافع عن شرفه وكرامته ، وقد
أسفه تفرق الأنصار عنه ، وقرار الأصحاب منه . فاضطرب له ،
وامتلاً بالحسرة قلبه . وفلج لوقته وتهاوى عن مثن جواده وتناولته
سنايك الخيل . ودارت الدائرة على جيش مصر ، ورجعت إليها
فلوله باكية حزينة .

وتعتبر موقعة « مرج دابق » المشهورة من الواقع الفاصلة
في تاريخ مصر . فتحت أمام المماليك الطريق إلى غزوها وغمام
إخضاعها . وهكذا جمت مصر والشام أمام الغزاة ، ووقعتا
فريستين سحيتين لهم ، فلهثوا بهما زهاء ثلاثة قرون تمسة شقية ،
لم تسددا فيها بيوم هناء .

محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

وأفق السال ، وجمع الجند وعين القادة ورتب أمر الخروج إلى
الكشام للاقاة بنى عمان . وهو لا يعلم أن المماليك قد اتصلوا ببعض
أمرائه فوجدوا منهم نفوساً هزيلة وقلوباً علييلة لا تكبر الأمانة ،
وتتمتذب الحياة في سبيل المظم غير الشروع ...

خرجت مواكب الجيش تترى ناسلة إلى دمشق فحلب ،
وعليها طلاوة وبها خيلاء ، يحسب من براها أنها إلى النصر تسير
وإلى القلب تطير . وهو لا يعلم أنها تجمع قوماً إن لم يمزقهم الضعف
فقد فرقهم الخلف ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، عمادها فريقان
من المماليك هما « الجلبان والقراصنة » ، وبينهما عداة مستحكمة
اضطربت ناره وتطابرت شراره ، وقد تمكن منهم الفساد
وحب العناد .

لا يزيد أن نسب إسمها تاريخياً في وصف مظاهر الضعف
في الجيش المصري ، ولا في أنباء قتاله حينذاك ، فقد امتلأت
بهذه الأنباء بطون الموسوعات .

وحسبنا أن نذكر أن هذا الجيش - على علته - اتى جيش
المماليك على كثرة جنده ووفرة عدده ، فكاد يذهب به بدأ ويفرقه

ظهر هريثاً كتاب :

الحركات الاستقلالية في المغرب العربي

للاستاذ

عبدالله الفاسي

عضو المراسل لمجمع فؤاد الأول للغة العربية

أول كتاب في نحو ٦٠٠ صفحة يسجل المقاومة المغربية الدبلوماسية والعسكرية والسياسية ، ويشرح تطور الوعي القومي في
كل من تونس والجزائر ومراكش ، ويوجه العالم العربي نحو وعى جديد وميثاق حر للرجل العربي .

الثمن ٥٠ قرشاً اجرة البريد ٨٣ مليم

ويطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي باشا بالقاهرة

ومن المكتبات الشهيرة